



مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: السخرية عند البوصيري

اسم الكاتب: د. محمود سالم محمد

رابط ثابت: <https://political-encyclopedia.org/library/2802>

تاريخ الاسترداد: 2025/05/09 23:15 +03

الموسوعة السياسية هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.

لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسية – Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسية – Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع <https://political-encyclopedia.org/terms-of-use>

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسية
مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكرية ومتطلبات رخصة المنشاع الإبداعي التي يتضمن المقال تحتها.



السخرية عند البوصيري

د. محمود سالم محمد*

الملخص

عرف البوصيري بأنه شاعر المذاق النبوية الأولى، وبأنه صوفي ملتزم بتوجه الصوفية، ويدا من نبوياته رجلاً متديناً جاداً متنقطاً عن حياة الناس معرضًا عمًا يتهم الكون عليه.

لكن البوصيري نظم في موضوعات الشعر المختلفة ومنها الهجاء والشكوى ووصف الحال. وقد أدى هذه الموضوعات بطريقة ساخرة لأن السخرية مؤلمة في الهجاء، ولأنها تبعد الضجر عن الشكوى.

وجاءت سخريته مرة حيناً، ومرحة حيناً آخر، أعطت لشعره قبولاً عند المتلقين، وأبعدت عنه التقليد، ورفعت المستوى الفني لأدائه، وأضفت عليه شيئاً من الجدة.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية.

Irony in the Poetry of Albusiri

Dr. Mahmoud Salem Mohammed**

Abstract

Albusiri was known as the top poet in prophet praise poems and as a committed Sufi. He seemed as a serious religious man from his prophet praise poems. The poems also revealed that he was a solitary man not living the life of ordinary people and not interested in what they were seeking. However, Albusiri wrote various poetic genres including satires, complaints and descriptions of present conditions. He wrote in an ironic tone because irony is bitter in satire and because it also keeps boredom out of such complaining poems.

His irony was bitter at times and funny at others. This made his poetry well-received by the recipients and difficult to imitate, have an increased technical level, and added a touch of seriousness.

** Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Department of Arabic Language

اشتهر البوصيري بأنه شاعر المدائح النبوية الأول في التراث الشعري العربي، وعرف بتوجهه الصوفي، ف تكونت له صورة في النقوس، بدا فيها زاهداً منقطعاً إلى العبادة، متزفغاً عن شؤون الحياة الدنيا، لا يمدح كبيراً، ولا يتزلف إلى ملك، جاداً لا يقترب من المرح، متسامحاً لا يؤذى أحداً.

لكن هذه الصورة ليست صحيحة، فقد مدح السلاطين والأمراء، وألح في طلب المال منهم، وشكا الفقر والغبن، وخاض في أمور الدولة وانتقد عمالها، وهجا من انتقد شعره ومن ظن أنه قصر في حقه. واستخدم السخرية في هجائه ونقده وشكواه، وقدم نفسه في هيئة مضحكه تثير الشفقة.

وأتبع في سخريته طرائق مختلفة، منها الوصف والتوصير والتشبيه، ومنها القص والحوار ، ومنها المبالغة والمفارقة وقلب المفاهيم ، ومنها إبطاق الجمامد والحيوان . وأدى سخريته بأسلوب مغاير لشعره الديني ، اتسم بالبساطة والوضوح ، وبالميل إلى الشعبية في العبارات والألفاظ.

وكان البوصيري هنا غير البوصيري هناك، أو أنه عاش اغتراباً، دفعه إلى التصوف والسخرية معاً.

ميله إلى السخرية:

أظهر البوصيري¹ في شعره وأخباره ميلاً واضحاً نحو السخرية، دفعته إليها مجموعة أسباب تتعلق به وبمجتمعه وظروف حياته. أولها تكوينه الجسدي والنفسي، فقد كان قصيراً نحيفاً، تقتضمه العين، وأشار إلى ذلك في رده على شاعر انتقصه بقوله:²

| | |
|--|-----------------------------------|
| بـدا من فـم كـالكـير أو هـو كـير | وـربـ أـديـب ذـي لـسان كـمـبرـد |
| كـأـي فـي قـعـر الزـجاجـة سورـ ³ | إـذا مـا رـأـي عـافـي وـاسـتقـلـي |
| سـمـين يـسـرـ النـاظـرـين طـيرـ ⁴ | وـيـعـجـبـه أـنـي نـحـيـف وـأـنـه |

¹- محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي المغربي (608 - 696هـ): الوفي بالوفيات، ص: 3-105.

²- ديوان البوصيري: ص: 148.

³- سور، سور: بقية الشراب في الكأس.

⁴- فوات الوفيات: ص: 3/368.

وبلّي فوق ذلك بالشيخوخة وأمراضها، فكان كثير العلل، كثير الشكوى من انحراف صحته، وقد أقعده المرض غير مرة، ومن هنا جاءت قصة نظمه لقصيدته البردة، التي أشارت إلى علة طالت عليه، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، يتقدّم به المديح، فلما نظمها بريء من علته⁵.

وأغمي عليه مرة مدة طويلة، فأشاع الناس موته، وبعد شفائه رد عليهم قوله:⁶

عاش بعد موته البوصيري وحياة الكلاب موت الحمير

وأورثه المرض ضيق الصدر، فلم يكن يتحمل إهانة أو تقصيراً في حقه، فكان يطلق لسانه في كل من يضايقه، ويستخدم الهجاء والتهديد به في الطلب إلى الناس، لذلك مقتنه ونحاشوه لسلطنة لسانه. وصرح بأنه يخيف الناس بلسانه ويتحمّل عليهم في كسب رزقه، فقال:⁷

وأنصب أحياًنا شباب قناعة أصيدها نوناً وضبًا وجُنَدًا⁸

وثاني أسباب ميله إلى السخرية فقره وأسرته الكبيرة وافتقاره الانسجام مع زوجته، فلم يرزق الراحة في بيته، واتخذ أسرته وسيلة لاستدرار عطف الممدوحين، وللشكوى من سوء أحواله، فضلاً عن نشأته في أسرة فقيرة، اضطررته إلى العمل صغيراً في أعمال لا تدر عليه ما يكفيه. لاحظ محقق ديوانه ذلك في شعره، فقال:⁹

"وكثيراً ما يمزج البوصيري مدائنه بالدعابة المضحكة التي تترك أثراً في النفس، ويصور حياته وما فيها من ضيق وبؤس.. ويطنب في ذلك ليستر عطف الممدوح".
وكرر الشاعر شكواه من أسرته وعجزه عن القيام بأمرها في مدائنه، مثل قوله لممدوحه:¹⁰

⁵ وطريق: شاب طر شاربه.

⁶ ديوان البوصيري: ص: 280

⁷ المصدر نفسه: ص: 97.

⁸ النون: الحوت أو السمك

⁹ المصدر نفسه: ص: 39.

¹⁰ المصدر نفسه: ص: 166.

| | |
|---------------------------------------|-------------------------|
| عائلة في غاية الكثرة | إليك نشكوك حالنا إننا |
| ما برهت والشريبة الجرّة ¹¹ | إن شربوا فالبئر زير لهم |
| في كل يوم تشبه النشرة ¹² | لهم من الحبّيز مسلوقة |
| ترهوا في الماء والحضره | أقول مهما اجتمعوا حولها |
| قمح ولا خبز ولا فطـره ¹³ | وأقبل العيد وما عندهم |

جاءت السخرية في شعوه من المبالغة في عدد أولاده وفي احتياجاتهم، ومن اختيار نبات الخبز طعاماً لهم، فاكتفى بسلقه ليكون عندهم نزهة بين الماء والخضرة، وما الماء إلا ماء السلق، وما الخضرة إلا نبات الخبز المسلوق.
ووصف أولاده في مدحه أخرى، فقال:¹⁴

وكذغب القطا ورأئي فِرَاخ
من إِناث أَعْوَلَهُمْ وذَكْرُ
يَتَعَاوَنْ كَالْدَبَابِ وَيَنْقَضُّ
سُونَ مِنْ فَرَطْ جَوْعَهُمْ كَالْنَسُورُ

أَتَتِ السُّخْرِيَّةُ فِي هَذَا الْوَصْفِ مِنِ التَّاقْضِ بَيْنِ صَغْرِ الْأَوْلَادِ وَضَعْفِهِمْ فِي الْبَيْتِ
الْأَوْلَ، وَشَدَّتِهِمْ فِي طَلَبِ الطَّعَامِ فِي الْبَيْتِ الثَّانِي. فَأَيْنَ الْفَرَاخُ الصَّغِيرَةُ الْمُضَعِّفَةُ مِنِ
الْدَبَابِ وَالنُّسُورِ؟

وصب نقمته من سوء حاله في بيته على زوجته الولود، فقال:¹⁵

والبغل ممقوت بغیر قیام
في الخلق وهي صبية الأرحام
ولیتی عِرس بُلیت بمقتها
بلغت من الكَبَر العِتَّي ونُكْسَت

¹¹- الوزير: الدين، ويطلق على وعاء كبير من الفخار.

¹²- الخبيزة: نبات أخضر ، تطبخ أوراقه. والنشرة: نشرت الأرض: أصابها الرياح فأنبتت، والنشرة: النسيم.

الفطرة: زكاة الفطر .¹³

١٥٦ - ديوان التوصيف: ص: ١٥٦

-15- الامتحان نفسي: 254

وأَتَتْ لِسَّةً أَشْهَرَ بُغْلامَ
إِنْ رَرَتْهَا فِي الْعَامِ يُومًا أَنْتَجَتْ
مِنْ فَعْلِ شَيْخٍ لَيْسَ بِالْقَوْمَ
أَوْهَذَهُ الْأَوْلَادُ جَاءُتْ كُلَّهَا
حَمَلْتُ بِهِمْ . لَا شَكْ . فِي الْأَحْلَامِ
وَأَظَنْتُ أَنَّهُمْ لِعُظُمٍ بِلِيَّةٍ

سخر البوصيري من نفسه ومن زوجته وأولاده في هذه الشكوى. فوصف نفسه بالبغل، وأشار إلى أنه عاجز جنسياً، ووصف زوجته بأنها طاعنة في السن وقبيحة، لكنها ظلت ولوداً. وبلغت سخريته مداها حين جعل الزوجة العجوز تلد كل ستة أشهر، وأنها حملت بأولادها في الأحلام. فهو يقلب الحقائق، ويتصال من مسؤوليته في كثرة الأولاد ليرسم البسمة على شفتيه ممدودة، وإن أساء لنفسه ولزوجته، فلم يخش التلميح إلى علاقته الحميمة مع زوجته، بل صرخ بها في قوله:¹⁶

نَّكَلَتْ ظَهَرَهُ بِغَيْرِ ظَهِيرٍ
مَنْ لَشَيْخٌ ذِي عَلَّةٍ وَعِيَالٍ
فِي عَنْوَانٍ مِنْ كَبْرَتِي وَنَفَورٍ
وَعَنَتْ أُمَّهَمٌ عَلَيَّ وَلَجَتْ
يَا كَثِيرَ التَّهَوِينِ وَالْتَّهَوِيرِ¹⁷
حِسِّبَتْ عِلَّاتِي تَزُولُ، فَقَالَتْ:
بِمَدَاوَاهُ دَاءُ عَضُوٍّ خَطِيرٍ
كُلُّ دَاءٍ لِّهِ دَوَاءٌ، فَعَجَّلَ
رَأْدَاوِي وَلَا بِمَلَحِ الْذَّرَورِ¹⁸
قَلَتْ: مَهْلَا فَمَا بِلَحْمِ السَّقْنَقُ
نَّتْ قَدِيمًا ثُزَادَ بِالْكَافُورِ
سَقَطَتْ قَوَّةُ الْمَرِيضِ الَّتِي كَا

هل يسلِي ممدوده بهذا الحديث الذي يكشف علاقته بزوجته؟ أو أنه يقدم حقيقة هذه العلاقة ليخفف عن نفسه معاناته معها؟ ثم ما هذا الحوار الذي يظهر رغبة الزوجة

¹⁶- المصدر نفسه: ص: 155.

¹⁷- التهوير: الغش.

¹⁸- السقنوغر: من الزواحف الصغيرة، الذرور: ما يذر من الدواء.

المشروع، وإن بدا جارحاً لها؟ إنها يسخر من نفسه لينقم من واقعه إذا كان كلامه صحيحًا، وليس ادعاء، يصطاد به جائزة المدح وعطاءه.

وثالث الأسباب لميله إلى السخرية علاقاته مع أهل الدولة وأهل الأدب، فقد حاول العمل في الدولة، وعرضت عليه أعمال رفضها، وشغل أعمالاً من غير مؤهلات كافية، وسلط لسانه على الناس، فحاولوا التخلص منه، فهجم عليهم سخرية قارصة، لأن الهجاء بغيرها لا يليق بشاعر المدائح النبوية المتصرف، ويسقطه بين الناس.

عمل البوصيري في صباح كاتباً لشواهد القبور، وافتتح كتاباً لتعليم الصبيان، واشتغل كاتباً حاسباً، وعرضت عليه وظيفة الحسبة، فاعتذر عنها، وهجّنها في قصيدة، صور فيها عمل المحاسب تصويراً ساخراً، فقال:¹⁹

فليس بيني وبينها انسابه
فعلى في السوق عصبة عصبه
سباً كأني مرقص الدبّه
كالكلب في السوق يلقيح الكلبه

لا تظلموني وتظلموا الحسّ به
أجلس والناس يهرعون إلى
أوجع زيدا ضربا وأشتمه
لم أر في قبح فعلها حسنا

رسم الشاعر مشهدًا حركيًّا، فيه وصف قائم على التشبيه المفضي إلى التهجين والتفريح. فتشبيه عمل المحتسب بترقيص الدبة وتلقيح الكلبة للكلبة يجعل العمل مستهجنًا قبيحًا، وكأنه يعرض بالمحتسب القائم بالحسنة ولا يعتذر عن العمل فيها. فالاعتذار لا يحتاج إلى هذه السخرية الجارحة، ولا إلى هذا التهجين لوظيفة دينية اجتماعية. وكان يعتقد أن إهداءه شيئاً، أو مصانعته لاققاء شر لسانه، أصبح أمراً ثابتاً واجباً، وأي إخلال به يستوجب العقاب والهجاء. فعندما أهملته فئة من الكتاب في مناسبة، وأهدتها فئة أخرى ، قال:²⁰

أماتري البغل وهو بغل في فضل له يفضل الحمارا

¹⁹- ديوان البيوصري: ص: 99.

-20- المصدر نفسه: ص 168

فهجا بذلك الفئة المهملة والفئة المحسنة، لأن وصف الرجل بالبغل لا يقل سوءاً عن وصفه بالحمار، وإن فضل الحيوان الأول على الحيوان الثاني.
وعندما عانده رجل مغربي في الشعر، تساءل ساخراً:²¹

| | |
|--|--|
| زاد به حبّي ووسواسٍ في صحبة الأجناس من باس بجيّبي الصوف ودفاسي ²² | فُلْ لَنَا مِنْ ذَا الْأَدِيبِ الَّذِي إِنْ كَانَ مِثْلِي مَغْرِبِيَا فَمَا وَإِنْ يَكْذِبْ نَسْبَتِي جَئْتَهُ |
|--|--|

وهكذا كانت علاقاته بالناس تهديداً ووعيداً، وهجاءً ونقداً، وسخرية جارحة، تنم على شراسة في الخلق، لا تتوافق مع متصوف كان شاعر المدائح النبوية الأول. فعندما انتقد الشاعر ابن الرعاع²³ بعض شعره، رد عليه بقوله:²⁴

| | |
|--|--|
| ومن عاب أشعاري فلا بد أن يهجمي ولا يقطع الرعاع يوماً له لجا | لقد عاب شعري في البرية شاعر وشاعري بحر لا يوافيه ضفدع |
|--|--|

وصف البوصيري الشاعر ابن الرعاع بالضفدع ليهون شأنه ويسخر منه، وأفاد من لقبه في تعميق هذه السخرية، مشيراً إلى ارتعاده وخوفه، فرد نقده ردًّا عنيفاً لا يتواافق مع النقد الشعري.

م الموضوعات سخرية:

تنوعت موضوعات سخريته، فشملت الهجاء والنقد، والشكوى من الفقر، وذكر الزوجة والأولاد، وذكر الطعام والحيوان مثل قوله في طلب حلوي الكنافة إلى قاض، يدعى عماد الدين:²⁵

²¹ المصدر نفسه: ص: 174.

²² لم يتضح معنى دفاس، ربما كانت لفظة مغربية تعني الحذاء ولم ترد في المعاجم.

²³ الرعاع: محمد بن رضوان بن إبراهيم الخياط، توفي على رأس السبع مئة. الدرر الكامنة، ص: 3 / 268.

²⁴ قوات الوفيات: ص: 3 / 367.

²⁵ ديوان البوصيري: ص: 174.

آه وبعدها على مسافه
قلت: هذا منكم حديث خرافه
ليت شعري لم لا ثعد الضيافه
ما أكلنا في ذا الصيام كنافه
قال قوم: إن العماد كريم
أنا ضيف له، وقد مت جوعا

استخدم البوصيري الهجاء في الطلب، وهذا أمر مستغرب، لأن الطلب يكون بالمدح والتنذل، وليس بالتعريض والسخرية، فوصف كرم القاضي بحديث خرافة، ونفى عنه أي احتمال للكرم، وربما وجد البوصيري أن الهجاء والتهديد به أجدى من المدح الذي قلل العطاء عليه، ولكن المستحسن في حديث البوصيري هو اشتهاوه لحلوى الكنافة والتاؤه لبعدها عنه، فظهر بمظهر العاشق لها، ولم يأبه لجرح كرامته، فكيف يشتهي شاعر كبير كالبوصيري الحلوي بهذه الطريقة؟ ر بما ذكرها ليُسخر من القاضي، ولريحه على تقييمها له. ومثل ذلك قوله لوزير في حق القاضي نفسه:²⁶

| | |
|-------------------|--------------------|
| بأنه الي يوم صائم | إن العماد أران |
| ولا يخاف ماثيم | وليس يرجو ثوابا |
| أن لا صيام لظلم | وليس يخفى عليه |
| لنه صيام بهائم | وصوننا في اتباع |
| غذاعنا وهو راغم | فخذلنا الي يوم منه |

طبع البوصيري بحضور مأدبة القاضي الذي اعتذر بصيامه، فقدم الشاعر شكوى للوزير، عرض فيها بالقاضي تعريضاً شديداً، واتهمه بالرياء والظلم، وسخر من نافته وورعه الظاهر، فإذاه من غير سبب يستحق عليه الأذى، ف الحديث الطعام عنده يفضي دوماً إلى الهجاء.

ومن شكواه الدالة على فقره والمتعلقة بالطعام قوله:²⁷

²⁶- المصدر نفسه: ص: 256.

²⁷- ديوان البوصيري: ص: 277.

وَدَمْعَتِي كَالْعَوَارِضِ الْهَرَّةِ
جَئْتُ إِلَى الطَّبِيبِ مُشْتَكِيَا
فِي كُلِّ يَوْمٍ دَجَاجَةَ دَهَّهَهِ
فَقَالَ: عُذْ لِي إِذَا احْتَمِيَتْ وَكُلْ
ضَّةً عَنْدِي كَأَنَّهَا بَدِئَهِ²⁸
كَيْفَ وَصَوْلِي إِلَى الدَّجَاجَةِ وَالْبَيْبِ

إن ضعف قدرته على شراء طعام الحمية دال على فقره، وعد البيضة عنده بدنية سخرية من حاله، فالبالغة في تقرير الأشياء البسيطة تؤدي إلى شيء من السخرية، لأنها تخرق المألوف بين الناس.

أما ذكره للحيوان فكثير في شعره، اتخذ وسيلة للدلالة على فقره، ولانتقاد خصومه، وإلاضحاك متلقيه. ومن ذلك قوله من قصيدة يعرض فيها برجل يدعى ابن عمارة:²⁹

مَا لَهُ مِيزَةٌ عَلَيَّ سَوَى أَنَّ (م) لَهُ بَغْلَةٌ وَمَا لَيْ حَمَارٍ
فَجَعَلَ امْتِلَاكَ حَيَانَ الرَّكُوبِ مَقِيَاسًا لِلتَّفَاضُلِ بَيْنَ النَّاسِ، وَبِهَذَا الْمَقِيَاسِ حَطَّ مِنْ
قِيمَةِ الرَّجُلِ، وَدَلَّ عَلَى فَقْرِهِ، وَهُوَ دَائِمُ الْمَقَارِنَةِ بَيْنَ الْبَغَالِ وَالْحَمِيرِ، لِأَنَّ الْبَغَالَ كَانَتْ
مَرْكُوبُ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْغَنْيِ، وَكَانَتْ الْحَمِيرُ مَرْكُوبُ الشَّعْرَاءِ الْفَقَرَاءِ.
وَنَظَمَ الْبَوَصِيرِيُّ عَدَّةَ قَصَائِدَ فِي مَهَاجِمَةِ عَمَالِ الدُّولَةِ وَنَقْدِ أَعْمَالِهِمْ، وَقَدْ خَبَرَهُمْ فِي
أَثْنَاءِ عَمَلِهِمْ، وَنَقَمْ عَلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُمْ مِنْ عَمَلِهِ بِسَبِيلِ افْتَقَارِهِ إِلَى الْمَهَارَاتِ الْلَّازِمةِ
لِلْحَسَابِ وَالْكِتَابَةِ. وَقَدْ اتَّخَذَ السُّخْرِيَّةَ وَسِيلَةً فِي نَقْدِهِ لَهُمْ مِثْلَ قَوْلِهِ:³⁰

لَمْ أُبْقِ لِلْمُسْتَخْدِمِينَ ضَرُوسًا
لَوْ كُنْتُ أَمْلِكُ أَمْرَهُمْ مِنْ غَيْرِتِي
لَوْ يُحِبِّلُونَ لِأَشْبَهِهَا الْجَامِوسًا
يَحْتَاجُ خَيَالُ الْمُتَلْقِيِّ إِلَى تَحْلِيقٍ وَنَشَاطٍ كَبِيرٍ لِيَتَصَوَّرَ الْمُسْتَخْدِمِينَ مِنْ غَيْرِ أَسْنَانٍ
تَسَاعِدُهُمْ عَلَى أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ، أَوْ وَهُمْ يَحْلِبُونَ مِثْلَ الْجَامِوسِ، وَقَدْ أَفَادَ الشَّاعِرُ مِنْ

-²⁸ البدنة من الإبل والبقر: الأضحية.

-²⁹ ديوان البوصيري: ص: 131.

-³⁰ المصدر نفسه: ص: 172.

كلمة (يرعون) التي تعني رعي الماشية في الحقل وأكلها للعشب، وتعني رعاية الشيء وحفظه وصونه. وهذه الهيئة التي رسمها البوصيري للمستخدمين مزارية ومضحكة معًا. وانقل البوصيري في نقد المستخدمين إلى مجال آخر، حين وصف علاقة فئة منهم بفئة أخرى، فقال:³¹

| | |
|--|--|
| كُلَّ عَذْلٍ مُضَايِقٍ فِي وَصْوَلٍ | إِنْ حُلَاقَ الشَّهُودِ وَالْعَمَالِ |
| كَعْنُولٍ مُضَايِقٍ فِي وَصَالٍ | مُثْلُ حُلَاقِ الْعُشَاقِ وَالْعُذَالٌ |
| لَسْتُ أَدْرِي مَعْنَى التَّبَاغْضِ مَا بِيْ | فِي الْفَرِيقَيْنِ غَيْرِ حُبِّ الْمَالِ |

أبدع الشاعر في تشبيه خلق المستخدمين، وفي بيان التناقض بين الشهد والعمال حين انتقل به من التناقض والحسد في العمل إلى مشاهد المحبين والعذال، كل منهم يحرض على حرمان الآخر من السرقة. ولم تكن العفة والأمانة وراء هذه المنافسة، وإنما الحرث على أن تكون سرقة الأموال من نصيبه. وفي هذا التشبيه سخرية واضحة، وصل إليها البوصيري بهذا التشبيه الغريب المستمد من معرفته لشعر الغزل.

طرائق أداء السخرية:

اتبع البوصيري طرائق مختلفة في أداء سخريته. أولها الوصف والتوصير والتشبيه، فكان يرسم مشاهد ساخرة من نفسه ومن مه gio، كما فعل عندما صور نفسه في عمل الحسية، ثم صور المحتبس القائم بعمله فقال:

| | |
|--------------------------------|--|
| بُدْرَةٌ مثُلَ رَأْسِهِ صُلْبٌ | وَمَا يَزَالُ الْغَلامُ يَتَبعُهُ |
| قد جاءكم من دمشق في عُلْبَه | وَهُوَ يَقُولُ: افْسُحُوا لِمَحْتَسِبٍ |
| ورام يحكى، الأسود في، الوثنية | فَطَّهَارٌ بِرَغْوُثَهِ لِخَفَّتِهِ |

⁻³¹ المصدر نفسه: ص: 236.

³²-الشهود: جمع شاهد وهو من يجلس في المحاكم ليقرب الدعوى من الحكم الشرعي، ويقرب عمله من عمل المحامي هذه الأيام.

³³ دیوان البوصیری: ص: 100.

| | |
|---|--------------------------------------|
| قطله سرّة ولا رُكْبَه | أغرقه جهله وما سُترت |
| أُخجل شيب الذقون مِن حَضْبِه | وعاد تمويهه عليه وكم |
| — وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فِي التُّرْبَه | وساعني ما جرى عليه من النَّسْ |
| لَكُنْ سَمِعْتُ الصَّيَاحَ وَالنَّدِبَه | فَلَا تَسْأَلِي فَمَا حَضَرْتُ لَهَا |

تقوم قصيدة الاعتذار عن قبول عمل الحسبة على وصف ساخر لما يراه من عمل المحتسب، ولما يتخيله في حال مباشرته لهذا العمل. والوصفان، الحقيقي والمتخيل، يفضيان إلى تهجين هذا العمل أو طريقة أدائه في أيامه. فتخيل جلوسه في السوق، والناس يهربون إليه، فيضربه هذا، ويشتمنه هذا، وشبه عمله بعمل مرقص الدبة، وهو تشبيه ساخر يحط من عمل الحسبة.

ووصف موكب المحتسب القائم بعمله وهو يمشي في السوق، يحيط به الصغار، ويتبعه غلام غبي، يفسح له الطريق، ويضرب الناس بذرته الصلبة. وهذا المشهد الساخر جاء واضح للمحتسب المستقدم من دمشق في علبة. ولم يكتف الشاعر بهذا الوصف المزري للمحتسب، فالتفت إلى ذكر مثالبه المتعلقة بشخصه وبعمله، فوصفه بالجهل وبالتلطّاف خلاف ما هو عليه، وشبهه بالبرغوث الذي يريد محاكاة الأسد في وثبته، وشتان بين الأسود والبراغيث في الشأن والأثر. وأبدع الشاعر في الجمع بين الغرق المعنوي في الجهل والغرق المادي في الماء، فظللت سرة المحتسب وركبته ظاهرتين مثلاً ظل جهله ظاهراً، وكذلك في المثل الذي ضربه عن الخضاب المنحسر عن اللحية والمظهر لحقيقةها. وهذا كلّه وصف ساخر أقامه على التشبيهات المهجنة والأمثال الكاشفة للحقيقة.

واختتم البوصيري وصفه الساخر بحكاية مجملة عن واقعة جرت للمحتسب مع نسوة في المقبرة، كثُر فيها الصياح والنديبة. وربما أراد المحتسب صد النسوة عن زيارة المقبرة، فلقي منها ما يحط من قيمته ويسقط هيبيته.

أراد البوصيري الاعتذار عن قبول عمل الحسبة بتهجين أصحابها، فعمد إلى التصوير الساخر الذي يضحك الناس من المحتسب ويسقطه ويؤذنه، فقدم نصاً شعرياً ممتعًا

ومفيداً. جاء الإمتاع من الطريقة التي أدى بها مراده، وهي الوصف الساخر والتشبيه المهجن والسرد الموسيقي. وجاءت الفائدة من تقديم معلومات عن الحسبة في أيامه وطريقة القيام بأعمالها.

واعتمد البوصيري على التشبيه في أداء سخريته، فأقام علاقات بين أشياء متباينة للتبني والإزدراء والتهويين قبل الإيضاح والتبيين. فتشبيهه المحتسب بالبرغوث ازدراء وتهويين لشأنه، ووصف عمل الحسبة بالكلب يلتحم الكلبة في السوق تحذير لعمل الحسبة ما بعده تحذير، وكذلك تشبيه الدهر في قوله:³⁴

والدهر يرفع أطرافاً كما رفعت
أذنابها لقضاء الحاجة البقر

يرتفع بعض الناس إلى مكانة عالية لا يستحقونها، ويصلون إليها بطريق ملتوية وفي غفلة من المجتمع، وهذا يغيط أهل الفضل، فيصيّبون نقمتهم على الزمان، ومنهم البوصيري الذي شبه الأطراف أو الجهلة الذين رفعهم الدهر بأذناب البقر المرفوعة عند قضاء الحاجة، فرسم بهذا التشبيه منظراً مقززاً، فيه تهويين شديد واحتقار لهؤلاء الجهلة، وسخرية شديدة منهم.

وعرض في قصيدة له ب الرجل قريه ممدوحه، فشبه هذا التقريب بقوله:³⁵

وابن عمران وهو شرّ متاعٍ
للورى في بطانية وظهاره
حسن القرب منكم قبح ذكراء
ه كتحسين المسك ذكرًا لفاره

بحث البوصيري عن طريقة يشيد فيها بالممدوح ويهجو ابن عمران، فاهتدى إلى هذا التشبيه الغريب الذي يرفع الطرف الأول ويحط الطرف الثاني. وتتadar إلى ذهنه فأرة المسك، فحول معنى فأرة من الوعاء إلى القارض المقزز، فقد حسنت إضافة المسك إلى الفأرة ذكرها، وكذلك تقريب الممدوح لهذا الرجل، وفي ذلك تشبيه للممدوح بالمسك وتشبيه لابن عمران بال فأر، وهذه سخرية مؤلمة.

³⁴ ديوان البوصيري: ص: 141.

³⁵ المصدر نفسه: ص: 131.

وافتن في قصيده التي هاجم فيها المستخدمين في اقتناص التشبيهات الساخرة المعبرة، فبعد أن شبههم بالجاموس الذي يدر الحليب لكثره ما أكلوه من أموال الناس، عاد وشبههم بالسوس في قوله:³⁶

الله أرس—— لهم على أق—— واتهم سوساً وقد أمنوا عليها السوسا

يكفي تشبيه المستخدمين بالسوس احتقاراً لهم، فضلاً عن السخرية من قرنه بحشرة حقيقة مؤذية فقد أفاد البوصيري من التشبيه كثيراً، وكان عوناً له في السخرية الواخزة المؤلمة.

واتبع البوصيري طريقة القص وال الحوار في أداء سخريته، فكان يروي لمدحه وقائع مضحكه جرت معه، وينقل في هذه الرواية حوار أبطال القصة، وغالباً ما يأتي الحوار ساخراً في مضمونه وأسلوبه، مثل قوله:³⁷

| | |
|--|---|
| <p>والأخت في الغيرة كالضُّر وصبرها معى على العُسره كذا مع الأزواج يا غَرَه تخاف منك ولا فتره ثم انتفهى شعرة شعره فإن زوجي عنده ضجره طلقي، قالت لها: بعره فجاعت الزوجة مُحتَرَه فاستقبلت رأسى بـأجُره من أول الليل إلى بُكْره</p> | <p>ويوم زارت أمهم أختها وأقبلت تشكى لها حالها قالت لها: كيف تكون النّسَاء قومي اطلبني حَقَّك منه بلا إِن تَأبَى فـُحْذِي ذقْنَه قالت لها: ما عادتي هـذا أخاف إن كـلَمْتـه كـلمـة فهوـنت قـدـري فـي نـفـسـها فـاسـتـقـبـلتـي فـي دـدـتها وـبـاتـتـ الفتـةـ ما بـيـنـا</p> |
|--|---|

³⁶- المصدر نفسه: ص: 172.

³⁷- المصدر نفسه: ص: 167.

هذه قصة شعرية، فيها الأحداث والحكمة، وفيها الأبطال والحوار، وفيها الزمان والمكان، وفيها الغاية المراده من سردها، وهي إظهار فقره واستدرار عطف ممدوحه، لكنه وصل إلى هذه الغاية بالفكاهة والسخرية من نفسه، فأدخل البهجة على نفس ممدوحه على الرغم من أنه يشكو سوء حاله ون ked في بيته.

أوضح الحوار الموقف، وزاده سخرية، وخاصة حديث الزوجة مع أختها، وعمقت الألفاظ المستخدمة في الحوار السخرية، مثل (انتقي ذقنه) و(بعره) و(آجره).

وأنطق في قصصه وحوارياته الجماد والحيوان، ليعطي للسخرية واقعية مفترضة، مثل قوله على لسان مسجد:³⁸

| | |
|---|---|
| دون غيري والإلـف لـلـرحمـن | ليـتـ شـعـريـ ماـ مـقـضـىـ حـرـمـانـي |
| جامـعاـ شـمـلـ قـارـئـ الـقـرـآنـ | أـثـرـانـيـ لـاـ أـسـتـحـقـ لـكـونـيـ |
| بـيـ يـُـدـعـىـ لـدـوـلـةـ السـلـاطـانـ | أـمـ لـكـونـيـ فـيـ إـثـرـ كـلـ صـلـةـ |
| صـدـقـاتـ السـلـاطـانـ دـوـنـ مـكـانـ | وـبـأـيـ اـسـبـابـ يـعـطـىـ مـكـانـ |
| أـمـرـ الطـعـامـ فـيـ رـمـضـانـ | آـهـ وـاـضـيـعـةـ الـمـساـكـينـ إـنـ وـلـيـ |

إن إدراج الشكوى على لسان المسجد أبلغ وأشد تأثيراً في المنتقى. واستخدام السخرية في حديث المسجد يُبعد الشكوى عن الضجر، ويكسّبها طرافة، وخاصة في هذا الجدل المؤدي بالتساؤل الإنكارى، والمنتهي بالتأوه والتوجّع للخوف من أن يتولى صاحب صدقات المساجد طعام المساكين في رمضان، لأنَّه عندها سيميتهم جوعاً، فالسرقة طبع عنده. وبهذا الحديث الساخر للمسجد نال البوصيري من صاحب صدقات المساجد، وأظهره بمظاهر المخالف للشرع.

وروى في القصيدة التي عرض فيها بابن عمار قصة بغلته التي أوقعته، وأنطقها بهجائه، فقال:³⁹

³⁸ ديوان البوصيري: ص: 260.

³⁹ المصدر نفسه: ص: 132.

| | |
|---------------------------|------------------------------|
| أنا مالي على الغبون مراره | قالت البغالة التي أوقعته |
| ـه مع الناس كل يوم صهاره | إن هذا شيخ له بجواره |
| أي بُخل فيه وأي قتاره | قلت: ما تكرهين منه؟ فقالت: |
| ومن القَرط أشتاهي نُواره | أنا في البيت أشتاهي كفَّ تبن |
| ع فإني من الخوى خواره | لا تلوموا إذا وقعت من الجو |
| ن وقالت: تمت عليك العيارة | غيرتني بها بغال الطواحي |

أنطق البوصيري البغة بهجاء الرجل والسخرية منه، وقدمها بصورة إحدى نسائه، وأقام معها حواراً يكشف بخل الرجل ومثاليه. وجمع في قصيده بين حاجات البشر وطبائعهم وحاجات الحيوانات وطبائعها، واستخدم طائق التعبير الشعبي والعبارات المفصحه التي يستخدمها العامة، وقد خفت السخرية من وقع الهجاء الفاحش الذي أجراه على لسان البغة، واتهمه فيه بفساد دينه وعرضه. وجاء حديث البغة من حديث البشر، فأضافى عليها الوعي والمعرفة، وأنطقها بما يريده، ومن هنا جاءت المفارقة وجاءت السخرية التي تبعث على الابتسام، فقد تصبح هذه القصيدة حديث الناس، يواجهون بها الرجل كلما شاهدوه.

واستخدم هذه الطريقة في السخرية من نفسه، حين أغار أئته لأمير فاحظ الأمير بها، وأرسل ثمنها إلى البوصيري، لكن الشاعر لم يعجبه هذا الأمر، فنظم على لسان أئته قوله: 44

-40- تخطف الف (أنا) لتصبح فتحة فيستقنه الوزن

-41- فتاویٰ من قش : اقتصد و بخل :

⁴²- الفرط: النبات الأخضر ، نواره: زهرة، أو ما نضج من النبات.

⁴³ ضعفه: خواة، الطعام، الخلو من، الخواة؛ -

⁻⁴⁴ ديوان الوصي، ص: 237.

أفاظه لـي بـأنـه فـاضـل
من شـرطـها أـنـ ثـرـدـ فيـ العـاجـل
قـطـ وـلـكـنـ سـيـديـ جـاهـل
لـقـلتـ غـيـظـاـ عـلـيـهـ: يـسـتـاهـل⁴⁵
مـلـكيـ فـلـانـيـ مـنـ سـيـديـ حـامـل
يـاـ أـيـهـاـ السـيـدـ الـذـيـ شـهـدـتـ
أـلـمـ أـكـنـ قـدـ أـخـذـتـ عـارـيـةـ
مـاـ كـانـ مـثـلـيـ يـعـيرـهـ أـحـدـ
لـوـ جـرـ سـوـهـ عـلـيـ منـ سـفـهـ
وـبـعـدـ هـذـاـ فـمـاـ يـحـلـ لـكـمـ

أفاد البوصيري من ثقافته الفقهية في هذا الجدل الذي أجراه على لسان أتنانه، وجعلها جارية حاملاً من سيدتها، فأعطي السخرية مداها، وقدم لمدحه ما يطرفه ويسرّه، وإن انتقص نفسه، فأعاد الأمير الأتان وترك له ثمنها، وفضلاً عن ذلك أنت السخرية من المفارقة بين الحديث المتفق وفائه.

ومفارقة بين المقارنين وسيلة أخرى من وسائل السخرية عند البوصيري، فيبين الكلام وصاحبـهـ مـفـارـقـةـ، وـبـيـنـ مـكـانـهـ الشـاعـرـ وـمـاـ يـقـدـمـهـ عـنـ نـفـسـهـ مـفـارـقـةـ، وـبـيـنـ صـفـةـ الـمـهـجوـيـةـ وـسـلـوكـهـ مـفـارـقـةـ، وـبـيـنـ الـمـفـتـرـضـ بـالـمـسـتـخـدـمـ وـوـاقـعـ عـلـمـهـ مـفـارـقـةـ، مـثـلـ قـوـلـهـ مـنـ⁴⁶
قصـيـتـهـ فـيـ هـجـاءـ الـمـسـتـخـدـمـينـ:

وـقـدـ طـلـعـتـ لـبـعـضـهـمـ ذـقـونـ
وـلـكـنـ بـعـدـمـاـ نـتـفـواـ ذـقـونـاـ
إـنـ الـمـفـارـقـةـ بـيـنـ طـلـوعـ لـحـىـ وـنـتـفـ أـخـرىـ تـقـودـ إـلـىـ تـصـورـ سـاحـرـ، وـكـأـنـ الـمـسـتـخـدـمـينـ
يـنـقـونـ لـحـىـ النـاسـ وـيـضـعـونـهـ عـلـىـ ذـقـونـهـ. وـالـأـمـرـ كـلـهـ إـشـارـةـ إـلـىـ أـنـ الـمـسـتـخـدـمـينـ
يـعـيـشـونـ فـيـ بـحـوـجـةـ، لـأـنـهـ سـلـبـواـ النـاسـ مـصـادـرـ عـيـشـهـمـ.
وـوـصـلـ بـالـمـفـارـقـةـ إـلـىـ مـنـتـهـاـهـاـ عـنـدـمـاـ قـالـ حـينـ حـلـ أـمـيرـ نـصـفـ لـحـيـةـ بـعـضـ
الـرـجـالـ⁴⁷:

⁴⁵- التجريـسـ: عـقـوبـةـ يـظـهـرـ فـيـهاـ الـمـعـاقـبـ بـهـيـةـ مـزـرـيـةـ.

⁴⁶- دـيوـانـ الـبـوـصـيـرـيـ: صـ: 266.

⁴⁷- الـمـصـدرـ نـفـسـهـ: صـ: 175.

قلت: لابد لها أن تُخافا
يا بني الأعمام من أن تُثقوا
كان في الأحكام عدلا منصفا
وعفا بالنصف عما سلفا

ثم قالوا عن ذقون حُلقت
إن حلق الذقن خير لفتى
والذي حلق أنصاف اللحى
حلق النصف بذنب حاضر

وقد علق محقق الديوان على هذه الأبيات بقوله:⁴⁸
(فانظر إلى هذه السخرية التي أصاب بها الشاعر الحاكم، فجعله عادلاً، لأنه لم
يأمر بحلق اللحية كلها. وهذا إمعان في التكيل.. فما كان من البوصيري إلا أن قلب
القضية، فجعل الإفراط في الظلم منتهى العدل، والقصوة رحمة والإساءة إحساناً. ولهذا
النوع من السخرية وقع عظيم في النفس...).

فقد اتبع البوصيري مغالطة واضحة في سخريته، وإن أقامها على حقائق في البداية،
فما يُحلق من الشعر سيختلف وبينيت مرة أخرى، والحلق خير من التنف الذي لا يخالف،
لكن حلق نصف الذقن إهانة شديدة، حاول الشاعر تهويتها وتسويغها، فأضحك الناس
من المعاقبين، وكان الأولى أن يرثي لهم.

أسلوبه في السخرية:

يلاحظ بوضوح أن أسلوب البوصيري في سخريته يختلف عن أسلوبه في مدائحه
النبيوية وشعره الديني، فانتسب شعره هناك بالجزالة والفخامة والقوة ومضارعة القدماء في
الأفاظهم وتراكيبهم مع شيء من الإغراب في وصف مشاهد الحجاز مع استخدام الألفاظ
والمصطلحات الدينية، والميل إلى الأفاظ الطنانة التي تجعل القصائد ملائمة للإنشاد.
لكتنا نجد أسلوبه في قصائد السخرية بسيطاً واضحاً، يقترب من كلام العامة، ويخف
إيقاعه لكثرة السرد والحوار فيه، مثل قوله:⁴⁹

قالت لها: كيف تكون النساء
كذا مع الأزواج يا غرّة
قالت لها: ما عادي هكذا
فإن زوجي عنده ضجرة

⁴⁸- ديوان البوصيري: ص: 44.

⁴⁹- المصدر نفسه: ص: 167.

ومال في شعره الساخر نحو الشعبيّة في العبارات والألفاظ، ولم يتحرّج من ذكر الألفاظ السخيفية، وكأن السخرية في عصره لا تتم إلا بالأسلوب الشعبي البسيط، لأن عناصرها مستمدّة من البيئة، سواء في ذلك المعاني أو الصور التي ينقلها الشاعر بألفاظها مع تقريرها من الفصحي، فيشعر المتلقّي أنه يستمع في حواره إلى اثنين من عامة الناس، مثل قوله:⁵⁰

أبـتـ النـفـسـ أـنـ ظـيـعـ وـقـالـتـ
إـنـ جـبـيـ لـاـ يـدـخـلـ القـيـنـيـةـ
قـالـتـ: اـضـرـبـ الـخـلـ أـوـ يـصـيرـ طـحـيـنـةـ
واـضـرـبـ الـخـلـ أـوـ يـصـيرـ طـحـيـنـةـ

فكلمة قينية (قارورة) كلمة شعبيّة جاريّة على ألسنة الناس، وكذلك عبارة (يدخل القينية) والمثل الشعبي (اضرب الخل أو يصير طحينة) من العبارات الشعبيّة المتدالوة، وكلتا العبارتين تعنيان الاستحالّة.

وكثير من ألفاظ شعره الساخر وقوافيه مستمدّة من حديث الناس، مثل (كلبة، رُكبة، عليه، التربية، حماره). وربما طوع اللحظة لمقتضى القافية، ليأتي التعبير شعبياً، مثل قوله على لسان بغلته:⁵¹

عـيـرـتـيـ بـهـاـ بـغـالـ الطـوـاحـيـ
نـ وـقـالـتـ: تـمـتـ عـلـيـكـ العـيـارـهـ
وـمـعـ قـلـةـ أـلـفـاظـ السـخـفـ فـيـ شـعـرـهـ، إـلـاـ أـلـهـاـ أـسـاعـتـ إـلـيـهـ، مـثـلـ دـعـائـهـ لـلـطـبـيـبـ بـقـولـهـ:

جـزـاـكـ رـبـيـ إـذـاـ اـنـسـهـلـتـ بـمـاـ
شـرـتـ عـنـ كـلـ خـرـيـةـ حـسـنـهـ

فالبساطة والميل إلى الشعبيّة سمة واضحة في شعر البوصيري الساخر. إن السخرية في شعر البوصيري تتّسجم مع واقعه، وإن كانت مستغرية من شاعر المدائح النبوية الأول في الشعر العربي، وكأن البوصيري هنا غير البوصيري هناك، أو أنه كان يعاني ازدواج الشخصية، نراه شيئاً متّصوّفاً في قسم من شعره، ونراه هازلاً

⁵⁰. المصدر نفسه: ص: 276.

⁵¹. ديوان البوصيري: ص: 133.

⁵². المصدر نفسه: ص: 277.

ساخراً في قسم آخر. وربما عاد هذا الازدواج إلى أنه أخفق في أعماله لفقده الانسجام مع الناس، وأخفق في تصوفه لأنّ طبيعة نفسه لا تحتمل تجهم التصوف، ولا تتفق روح الدعابة عنده مع الالتزام الديني الشديد، ولا يمكن لشاعر هجاء سليط اللسان كثير الطلب أن يكون متصوّفاً مستغرقاً في التصوف مع أن شعره الديني ينطلق من منطلق التصوف.

وكأن الشاعر كان يعاني شيئاً من الاغتراب لإخفاقه في إقامة علاقات سوية مع الناس من حوله، فدفعه هذا الشعور إلى التصوف والسخرية معاً. التصوف يعبر عن نكوصه عن مواجهة مشكلاته وعجزه عن تحقيق مآربه، والسخرية تعبر عن رغبته في الانتقام من مجتمعه وممن آذاه فيه.

المصادر والمراجع:

1. ديوان البوصيري: تحقيق محمد سيد كيلاني، ط2، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، 1973م.
2. الدرر الكامنة: لابن حجر العسقلاني، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
3. شفاء الغليل: لخفاجي، تصحيح: محمد عبد المنعم الخفاجي، ط1، مكتبة القاهرة، 1952م.
4. فوات الوفيات: لابن شاكر الكتبى، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
5. المداخن النبوية حتى نهاية العصر المملوكي: محمود سالم محمد، ط1، دار الفكر، دمشق، 1996م.
6. معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي: محمد دهمان، ط1، دار الفكر، دمشق، 1990م.
7. المنهل الصافي: لابن تغري بردي، تحقيق: أحمد نجاتي، ط1، دار الكتاب، القاهرة.
8. الوافي بالوفيات: للصفدي، تحقيق: مجموعة المعهد الألماني للدراسات الشرقية، بيروت.